الثورة
الخميس 17 ذو القعدة 1433هـ 4 اكتوبر 2012م العدد (17487)

في دراسة علمية لكيفية الاهتمام بهذه المدينة:

الحلقة الأخيرة

البروفيسور رونالد لوكوك يحدد معالم الحفاظ على مدينة التاريخ صنعاء القديمة

المدينة القديمة تواجه هجوماً شرساً بالتشويه أو النزوح أو تأجيرها شققاً سكنية

تعد مدينة صنعاء التاريخية من اهم وأبرز المعالم التاريخية اليمنية المدرجة ضمن قائمة التراث العالمي ونظرا لأهمية هذه المدينة فقد حظيت بالاهتمام العالمي واهتمام المنظمات الدولية المهتمة بالتراث اكثر من اهتمامنا نحن اليمنيين بل واكثر من اهتمام الجهات الحكومية بها وقد حدد البروفسور رونالد لوكوك كيفية الحفاظ على هذه المدينة حيث يقول البروفسور رونالد في احدى الدراسات المقدمة لإحدى الفعاليات لإنقاذ مدينة صنعاء التاريخية بعنوان حملة الحفاظ على مدينة صنعاء القديمة أنه تم الحفاظ على مدينة صنعاء القديمة ، لحسن الحظ ، نظراً للفرصة التي أتاحها الأتراك لفصلهم المدينة الجديدة عن القديمة في القرن السادس عشر ، وباعتبارهم كياناً سكانياً غريباً لم يستطع الأتراك الاندماج بسهولة مع الحياة المزدحمة في مركز المدينة القديمة حول سوق الملح .

متابعة/صادق هزبر

هذا الإجراء الذي تم اتخاذه لضمان حماية المدينة القديمة أصبح مجهوداً جماعياً دعمته جهات الاختصاص في نفس ذلك الشهر أطلق في صنعاء رييد احمد مختار رامبو مدير عام اليونسكو رسمياً الحملة الدولية للحفاظ على مدينة صنعاء القديمة . دشنت الحكومة تجريبي لاستبدال الطول القصير لوسائل إمدادات المياه وإدخال أنابيب تصريف المجاري وعمل فتحات تسمح للعاملين بالمرور فيها وتنصيفها وإعادة رصف الطرق فوقها . جزء من المخصصات المالية تم إتاحته لهذا التوسع حوالي ١٠٠م طولاً فتحات التنظيف تم تركيبها كما أعيد رصف الشارع . عملية انتقاء حجارة الرصيف تم التفكير فيها بشكل عميق . بحيث تكون دائرية جانبية لا تشجع حركة مرور الموتورسكيلات . عندما تمت الموافقة على طول هذا الشارع ونجاع العمل فيه ونجح كبيراً ، تم تخصيص مبلغ من السابق للسنة التي يليها وتم تعيين الدكتور المرحوم عبد الرحمن الحداد مديراً عاماً للمكتب التنفيذي للحملة ومرة أخرى كان هذا الاختيار موفقاً على جميع الأصعدة تقريباً لقد كرس نفسه للحملة بلا كلل وأدرج فريقاً ممتازاً تحت تصرف الفريقين الآخرين يتضمن عبد الله الحضرمي ، ياسين غالب ، سبأ الصليحي ، ولاحقاً نبيل شيبان ، وبالطبع ٣٠أو ٤٠ شخصاً من اليمنيين الذين لا زالوا يعملون في العمارة والتخطيط في اليمن بالإضافة إلى العديد من الشباب الأجانب الأمريكيين ، الفرنسيين ، الهولنديين ، الألمانيين ، الكوريين، اليابانيين ، .. الخ . أعارتهم سفاراتهم ومراكز الأبحاث للعمل على مشاريع لصالح الحملة مع الفريق في مكتب الحملة وكانت هذه المشاريع تشمل إعادة رصف السايلة ، صيانة الأسوار والجوامع إصلاح السماسمر . العديد من البيوت تم إصلاحها بأموال المانحين وتم فتحها للعاملة كمتاحف حية كما تم تأسيس صندوق القروض لمساعدة أصحاب البيوت الخاصة للمحافظة على منازلهم في المدينة القديمة . لقد تم إعداد آلية الصيانة وتعيين مسئولين داخل gophcy لدعم المباني وتشريعات الصيانة . الظروف المعيشية سيتم تحسينها بواسطة تطوير الخدمات الاجتماعية بما في ذلك تحسين المدارس الجديدة والعيادات والطبية تخطيط حركة السير كان جزءاً هاماً من الحملة . دخول المدينة القديمة أصبح محصوراً من خلال استخدام الحواجز القمعية القابلة للطوي لتقييد الدخول إلى المباني السكنية كما أن الاستراتيجيات المصممة لمواجهة هذه الأهداف كانت مدرجة في الخطة العملية لعام ١٩٨٤م والخطة الخمسية لعام ١٩٨٧ وفي هذا الوقت كنت مهتماً بثلاث قضايا وهي بالتحديد :

١- إحياء الوظائف الاجتماعية للمباني القديمة . الحمامات العامة أصبحت مهملة باستمرار وتعرضت للتلف بسبب السماح فقط باستخدامها . في صنعاء يلاحظ أن المشرف على الحمام (الحمّامي) الذي بحرصه وتأكيده على النظافة يمكن أن يزيد من شعبية حمامات العامة ويغري بطرق أخرى الأشخاص المقتدرين الذي تبنوا الطرق الغربية ، على إعادة استخدام هذه الحمامات العامة . وحتى لو كان من الضروري أن تخفض الحمامات لتحقيق ذلك فإنني أشعر بأن تلك نتيجة حققت ما نصبو إليه في العديد من المجتمعات الإسلامية ذلك أن الهدف من الحمامات العامة هو الالتقاء بالأصدقاء من الجيران والراحة الجسدية من خلال تجربة الحمام الساخن ، والاسترخاء وتجاذب أطراف الحديث على أنغام الموسيقى والمشروبات المنعشة لاحقاً هذا الهدف عزز بشكل كبير الخبرة الجماعية والفردية واستعادة ذلك يمكن أن يصلح بعض قيم التواصل المباشر والحوار في المجتمع لقد شعرت بأنه إذا كانت نظافة وتواضع المستخدمين قد يتم الحرص عليها تأكيده لمرة أخرى ، كما في الماضي ، فإن التدهور سيتوقف وفي اليمن كان الحمام رمزاً للذوق والنظافة حتى السنوات القليلة الماضية .

٢- القدرة على التحكم بحركة مرور العربات .

أولاً : بحل مشكلة الزحمة المرورية ، وذلك بواسطة :

- إبقاء الحركة المرورية بعيداً عن عدة شوارع ما عدا الحالات الخاصة .
- السماح بمرور العربات الصغيرة فقط .
- تحديد سعات الدخول - الذي يتحكم به المواقع المتحكم الهيدروليكية التي تعمل بالبطائق .

ثانياً : بتوفير بدائل سخية لما وراء مناطق الصيانة .

ثالثاً : معالجة مشكلة تداخل حركة سير العربات مع حركات المشاة في الشوارع الضيقة .

- أي محاولة لحل هذه المشكلة بعزل المشاة عن العربات ، باستخدام رصيف المشاة كانت ستؤدي إلى ظهور سمة غريبة جديدة على المدن القديمة ، وهذا غير مقبول .
- بما أن حركة المختلفة لمختلف أنواع حركات السير يجب الإبقاء على سرعاتها فإن ذلك يعني أن على العربات الإبقاء على سرعتها منخفضة لدرجة تضارب سرعة حركة المشي وهذا ما يجب تفعيله بقولة القانون . أي شخص على إطلاع بمراكز التسوق القديمة لمثل هذه المدن كروما وكمبردج سيدرك أن ذلك يمكن تحقيقه بوضع الموانع بشكل مدروس وإلزامي .
- تشريع قانون لحماية المدن القديمة وتفعيله . لقد أصبح من الواضح أن التشريع القانوني وتفعيله سوف لن يحقق وحده هدف صيانة وترميم أي تراث ، حتى لو تم تمويل هذا العمل لاحقاً ، ومن دون الوعي العام بالحاجة إلى الصيانة والترميم ، فإن إصدار أي من التشريعات سوف لن تكون فاعلة حتى في الدول الغربية أثبتت التجربة أن أي مالك خاص مصمم وأسوأ من ذلك أي سلطة محلية ، او أسوأ من ذلك وزارة حكومية ، يمكن أن تدمر وتوجد طرق ملتوية لتتغلب بالحيلة على أكثر التشريعات المبنية بحرص وعناية لسوء الحظ فإن تثقيف العامة بدون إيجاد التشريع الفعال لم ينجح حتى في أوروبا . المساعي الطبية للأغلبية لا زالت تكافح أمام قبضة الأقلية ودوافعها الأنانية . لكننا تعلمنا درساً مهماً وهو أن التشريع الفعال وإلزامه ، مرتبطاً بتثقيف العامة ما زالا لا يستطيعان تقديم حماية دائمة للمواقع التذكارية الأثرية ولا حتى للمناطق المدينة إذا لم تتوفر المساعدة المالية والتي يصاحبها العمل الترميمي (لقد كان هذا أحد أكثر الدروس إيلاماً خلال السنوات الأولى لإصلاح السياسات بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا) مالم يتم إيجاد رسائل تدعم مع الالتزامات المالية التكاليف الباهظة الضرورية للصيانة لأصحاب الأملاك الخاصة ، المباني المتوفرة ، فإن البيئات ستسقط بشكل لا مفر منه ونقص الموارد سيؤدي لبحث غير كاف في الأخير سيؤدي ذلك إلى القيام بعمل صيانة تدميرية مزيفة وكنتيجة حتمية لذلك فإن الصيانة تتطلب ٣ عناصر : التشريع ، تثقيف الناس ، التمويل المالي ، لقد بدا لي أن هذه العناصر الثلاثة غير منفصلة عن بعضها البعض وهي العناصر الأساسية لنجاح أي مشروع ، فلا يمكن أن نحذف أمر هذه العناصر من غير أن نتوقع الفشل ، وعليه فإننا لا يمكن أن نقول أن أحداً منها أقل أهمية من الآخر . المشاكل التي ظهرت نتيجة الحاجة إلى إرضاء المجموعات الثلاث قبل أي برنامج صيانة يكون ناجحاً ، كانت مثبطة للهمة ، وحتى إذا تمت مواجهة هذه المشكلات بشكل متزن فهل هناك ضمان بأن يحتفظ المواطنون بأفضل ما في إرثهم الحضاري ليصل إلى عدد كبير من أحفادهم تلك كانت أسباب قلقي على الحملة حتى نهاية الثمانينات والتي بعدها أصبحت أقل انشغالاً ، وكنت أحضر إلى صنعاء بصفة أساسية من أجل الاستشارات والمؤتمرات كون أنه كان لدي مسؤوليات مهنية أخرى ، وعينتني اليونسكو لأكون مسئولاً عن حملتها في أوزباكستان . ويبدو لي أن هذا النقاش يجب أن، ينتهي بدراسة للأهداف النهائية للصيانة في اليمن . لقد كانت المباني التقليدية إجمالاً موجودة في وعي مستخدميها أكثر من وجودها اليوم في بيئات معقدة يعود ذلك جزئياً إلى استمرار المواد والظروف المناخية التي ترتبط ذهنياً ، البنية باللمسات الأخيرة ، وحتى أنه من أكبر المباني العامة إلى أصغر البيوت بنيت بأيدي أصحابها . الفن المعماري التقني لهذا العصر ، سواءً كانت مبنى من عدة شقق او مجمعاً مكتبياً متعدد الطوابق أو المجسم الدوار الخرساني الزائد المقوى بالأسلاك للجامع الحديث ، وهو أبعد ما يكون عن إدراك الإنسان العادة ومهاراته الشخصية ، وعلى جميع الأصعدة بأن الفن المعماري يختص بالناس من خلال التعبير عن هويتهم .

- إننا نعيش اليوم في عالم فيه تقدم الحياة وضغوطاتها يجعل من الصعب علينا باستمرار الحفاظ على حساسية ردود أفعالنا تجاه العالم بخصوصنا . وفي نفس الوقت فإن النزوع المتزايد في عصرنا للتقدم التقني هو من أجل العولمة او من أجل تقييد الاختلافات . حالياً بيئاتنا ذات أهمية بالغة بالنسبة لنا كتعبير عن شخصيتنا سواء كأفراد او جماعات في الأقاليم او الأمم . الفنون المعماري التقليدية كانت تقدم كنتيجة لصراع الإنسان لتحقيق تناغم مع الطبيعة ، للتواصل والتوازن بما يسمح له بتقدير قيمة جمال المواد الموجودة في متناول يديه والاستفادة منها إلى أقصى حد . لقد كانت بيئة محفزة وذات تحديات يستمر فيها الإنسان بالاستجابة لتغيرات الطبيعة ، وهذا ما لم يجعله ينسى باستمرار جماليات المعيشة وإرضاءاتها . الآن وبعد أن أصبحت تكنولوجيا البناء متقدمة جداً فإننا قد ربحنا السيطرة على بيئاتنا الطبيعية إننا محميون من هذه التجربة اليومية وأصبحنا غير حساسين تجاه العالم الذي نعيش فيه والذي يعني عدم شعورنا بحواسنا الأخرى أيضاً هو أنه من خلالها يمكن للناس العاديين تجربة هذا الفن المعماري مرة أخرى . لذلك فإنها ذات علاقة مباشرة بالبيئة الواقعية وبحياة الناس المستخدمة لها وهذا مبرر أساسي للحفاظ على المبنى أكبر من الوظيفة الفورية له وهو مبرر أساسي منفعي حديث للاحتفاظ بالمبنى او بمنطقة حضرية وهذا المبرر سيبقى إلى ما شاء الله وتتعدى منفعته المجردة للأجيال السابقة إلى المستقبل البعيد .